الفلسفة وعلوم اللسان
والمصطلحات الحديثة

الفلسفة والمصطلحات الحديثة

إن الثقافة الغربية قد عرفت فى القرن العشرين عدة اتجاهات فلسفية كبرى[1] أهمها الاتجاه التجريبى ، والاتجاه المثالى ، والفينومينولوجى ، والميتافيزيقى ، والواقعى الجديد ، وفلسفة الحياة ، والوجودى ، وأخيرًا الاتجاه البنيوى .

وقد ظهر الاتجاه التجريبى فى فرنسا على يد عدد من الفلاسفة قدموا أغلب إنتاجهم فى القرن التاسع عشر ، ولكن تأثير هذا الإنتاج لم يتحقق إلا فى مطلع القرن العشرين .

وقد كان للاتجاه التجريبى تأثيرات قوية فى مضمار علم النفس ، ظهرت بوضوح فى أعمال العالم الأمريكى واطسون (ولد عام 1878م) الذى قدم نظرية السلوكية .

وتعتبر حركة التحليل النفسى التى قام بها سيجموند فرويد (1856م - 1939م) أهم حركة نشأت من الاتجاه التجريبى .

أما الاتجاه المثالى ، فقد شاع ومارس تأثيره على البلاد الأوروبية الكبرى خلال الربع الأول من القرن العشرين ، كقوة فلسفية لها دور بارز حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

أما الفينومينولوجيا فكانت حركة قوية فى الفترة مابين 1900م و 1925م ، وقد أثرت على الجماهير بطريقة بالغة إلى حد أنها أثرت على التيار الكانتى الجديد وعلى مضمار علم النفس ، وبفضل جهود هسرل وفاندر وماكس شلر أصبحت مدرسة كبيرة .

وتشهد الفترة ما بين 1914م حتى 1950م ظهور مدرستين جديدتين ،

---

(1) يمكن للقارئ الرجوع إلى ثبت المراجع فى نهاية القاموس التى اعتمدنا عليها فى عرض التيارات والمذاهب والنظريات المختلفة .

الأولى هى مدرسة الوضعية الجديدة ، والثانية هى مدرسة الفلسفة الوجودية . وأخيرًا المدرسة البنيوية .

أما الواقعة الجديدة فقد ظهرت عند الفلاسفة الإنجليز أمثال صامويل الكساندر (1859م - 1938م) وبرتراند راسل (ولد فى عام 1827م) الذى أثر تأثيرًا بالغًا على الفلسفة الأوروبية فى القرن العشرين بوساطة إنتاجه الفلسفى الغزير .

أما الفلسفة المادية الجدلية ، فقد احتلت فى الفلسفة الأوروبية ـ فى القرن العشرين ـ مكانًا خاصًا . وهذه الفلسفة وضع أصولها كارل ماركس (1818م - 1883م) . وقد ضعف صوتها فى النصف الثانى من القرن العشرين أمام ظهور تيارات جديدة .

أما تيار فلسفة الحياة ، فيضم عدة اتجاهات ، هى الدفعة الحيوية ، والبرجماتية الإنجليزية ، والأمريكية ، والنزعة التاريخية .

أما التيار الفينومينولوجى الذى أسسه أدمند هسرل (1859م - 1938م) فهو منهج يقوم على وصف الظواهر ، وموضوعه هو الماهية أى المضمون العقلى المثالى للظواهر وضرورة الاتجاه إلى الأشياء ذاتها .

أما تيار الفلسفة الوجودية فلم يتشكل إلا فى النصف الأول من القرن العشرين ، وأن أصوله ترجع إلى جهود كل من جابريل مارسيل وكارل ياسبرز ، ومارتن هيدجر ، وجان بول سارتر . ويتناول هذا التيار مشكلات تتعلق بوجود الإنسان ، مثل مشكلة الموت ومشكلة معنى الحياة ، ومشكلة الألم ، وغيرها من المشكلات المتشابهة .

أما تيار البنيوية فقد ظهر فى الفترة ما بين 1960م و1966م ، ولم تكن البنيوية مجرد مفهوم علمى أو فلسفى بل أصبحت مفهومًا يأخذ به علماء اللغة والاجتماع والأنثروبولوجيا ، ونقاد الأدب ، وأصحاب التحليل النفسى ، والفلاسفة والمهتمين بتاريخ الثقافة .

إن التطبيقات التى عرفها منهج التحليل البنيوى هى التى كان لها الفضل فى شيوع كلمة « بنية » . لقد وضع بعض المفكرين والباحثين هذه الكلمة

بجوار غيرها من الكلمات الذائعة ذوات المعانى المتعددة ، من أمثال كلمات « الثقافة » و« القيمة » و« العمل » و« الإنسانية » وما إلى ذلك .

إن كلمة « البنية » قد أصبحت « كلمة » سائدة فى الكتابات الفلسفية والأدبية والنقدية والاقتصادية والاجتماعية ليس فى الحياة الفرنسية فحسب بل فى عديد من بلاد العالم الأوروبى وغير الأوروبى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى شعور الإنسان المعاصر بالحاجة إلى الإمساك بوحدة الواقع . فإن كلمة « البنية » تحمل فى طياتها نمطًا من رغبة العقل البشرى فى أن يضع يده على الموضوع من أجل احتباسه فى داخل شباكه .

وكأن البنية وحدة جديدة تضمن للعقل فهم الواقع والسيطرة عليه . ولا شك أن البنية ليست مجرد تعبير عن ذلك الكل الذى لا يمكن رده إلا إلى مجموع أجزائه بل هى أيضًا تعبير عن ضرورة النظر إلى الموضوع على أنه نظام أو نسق حتى يكون فى الإمكان إدراكه ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل بعض الكتاب يذهبون إلى القول بأن وراء البنيوية ابستميولوجيا خفية تسعى نحو تحقيق ضرب من الوضعية الجديدة ، باعتبار أن مفهوم البنية يمثل قطعية معرفية ، مع كل فلسفة تتخذ من الذات نقطة انطلاق لها . وتدير ظهرها لكل ما هو معاش من أجل التوصل إلى فهم الواقع .

إن البنيوية مدينة لعلم اللسانيات ، وعلم الأصوات . وهذا الأخير قد لعب دورًا بالنسبة للعلوم الاجتماعية على درجة عالية من الأهمية . وتنحصر مبادئ هذا العلم فى عدة مبادئ أساسية هى : عدم الاهتمام بدراسة الظواهر اللغوية الشعورية ، والاهتمام بدراسة البنية السفلية اللاشعورية ، ودراسة العلاقات القائمة بين الحدود ، باعتبار أن هناك علاقات ضرورية تؤلف نسقًا فيما بينها صار محكمًا ، هذا فضلاً عن أن هذا العلم لا يسير على نهج تجريبى انطلاقًا من وقائع ملاحظة ، بل هو يسير على منهج منطقى استنباطى انطلاقًا من نموذج قد تم تركيبه مما يسمح له بالوصول إلى قوانين عامة .

ومن هذا النموذج الفونولوجى انطلق ليفى اشتراوس نحو تطبيقه على الوقائع الاجتماعية معتبرًا أن علوم اللسان من العلوم التى يجب أن تحتذى بها سائر العلوم الاجتماعية الأخرى ومدركًا فى الوقت نفسه أنه لابد لبنيوية من

أن تجىء وتحتل محل النزعة الذرية فى مجال فهم الكثير من الظواهر اللغوية والأنثربولوجية بعد أن أصبحت البنيوية بمثابة اللغة الشارحة لكل مجالات الحضارة المعاصرة .

علوم اللسان والمصطلحات الحديثة

(1) أهم النظريات اللسانية المعاصرة هى النظرية البنيوية اللغوية ، التى ظهرت إلى حيز الوجود فى عام 1928م فى المؤتمر الدولى لعلوم اللسان الذى انعقد فى مدينة لاهاى بهولندا ، حيث قدم ثلاثة علماء روس ، هم : ياكوبسون وكارشفسكى ، وتروتسكوى بحوث علمية تضمن الأصول الأولى للنزعة البنيوية اللغوية .

(2) وكانت أعمال فردينان دى سوسير تسير فى هذا الاتجاه ، إذا كانت الخطوة الأولى التى قام بها هى تحديد موضوع « علم اللغة » بعد النظر إلى شتى العوامل التى تكون النسيج اللغوى لدى البشر .

وقد أجرى دى سوسير تفرقة أولية هامة بين « اللغة » و« الكلام » ، فاللغة نظام اجتماعى مستقل عن الفرد ، فى حين أن الكلام هو تحقيق عينى فردى وعلى هذا الأساس نفهم أن اللغة تقنين اجتماعى ، أو مجموعة من القواعد ، فى حين أن الكلام فعل فردى يقوم به الشخص فى حديثه مع غيره من الأشخاص .

والصلة بين اللغة والكلام هى كالصلة بين الجوهر والعرضى . وعلى هذا الأساس فإن موضوع علم اللسان هو اللغة منظورًا إليها فى ذاتها . ومن هنا يصبح التعريف الصحيح للغة هو أن يقال إنها نسق عضوى منظم من العلامات .

وهذه العلامات - فى رأى دى سوسير - مزدوجة أو ذات وجهين ؛ لأن العلامة اللغوية لا ترتبط بشىء ما ، كما أن اللغة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد تحويل أو نقل للواقع من المجال العينى إلى المجال المجرد . وإنما العلامة عبارة عن اتحاد بين صورة صوتية ، ألا وهى الدال ، وبين تمثيل ذهنى أو تصور ، ألا وهو المدلول . والدال يندرج تحت النظام المادى لأنه عبارة عن أصوات وإيماءات ، أو حركات ، فى حين أن المدلول يندرج تحت

النظام الذهنى لأنه يتحدد على مستوى المحتوى أو المضمون كفكرة أو معنى ، ولهذا يشبه دى سوسير اللغة بورقة ذات وجهين ، الوجه فيها هو الدال ، والظهر هو المدلول .

ولما كانت اللغة نسقًا من العلامات . فقد ذهب دى سوسير إلى أن المهمة الأولى التى تقع على عاتق عالم اللغويات هى تحديد ما يجعل من اللغة نظامًا نوعيًا خاصًا داخل مجموعة الوقائع السيميولوجية . والحق أن المشكلة اللغوية ، هى مشكلة سيميولوجية نظرًا لأن اللغة تنتمى إلى تلك المجموعة الكبرى من الأنظمة الرمزية التى تتألف منها الثقافة ، ومن بينها الفن والأساطير والكتابة ، ... إلخ . وليست السيميولوجيا Sémiologie سوى العلم الذى يدرس حياة العلامات فى ظل الحياة الاجتماعية .

إن اللغويات هى أصل السيميولوجيا جميعًا لأن اللغة بين سائر أنظمة العلامات هى الأكثر شمولاً وتعقيدًا .

وهذا المبدأ امتد خارج نطاق الدراسات اللغوية ، فقد عرف طريقه إلى النقد الأدبى وباقى فروع الدراسات الإنسانية . وأصبح النقد وباقى فروع هذه الدراسات على وعى باكتشاف السيميولوجيا الخاصة به . وبدلاً من أن تذوب اللغة فى المجتمع ، فقد أصبح المجتمع يتعرف على نفسه باعتبار لغة .

وهكذا راح بعض نقاد الأدب يمضون قدمًا نحو البحث عن تفسير للبنيات الأدبية فى الأعمال الروائية ، بوصفها مجموعة من الدالات التى لابد من البحث لها عن مدلولات .

(3) أن سوسير كما ميَّز بين اللغة والكلام أو بين الدال والمدلول ، نراه يميز أيضًا بين اللغويات الداخلية ، واللغويات الخارجية على اعتبار أن الأولى بمثابة دراسة محاثية للغة ، والثانية دراسة المؤثر عليها ، كالحضارة ، والتاريخ ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ... إلخ .

(4) اللغة - عند دى سوسير - نظام أو نسق له قواعده الخاصة ، وأن مكونات هذا النسق مترابطة ومتماسكة بمعنى ما من المعانى . ووصف عناصر اللغة لا يتم إلا بالنظر إلى علاقة كل عنصر بما عداه من العناصر الأخرى .

إن فكرة النظام أو النسق عند دى سوسير لم تكن سوى مجرد تأكيد

لضرورة إحلال المنهج البنيوى محل المنهج التاريخى فى دراسة الظواهر اللغوية .

(5) وقد فرق دى سوسير تفرقة هامة فى حديثه عن خصائص اللغة ، وهذه التفرقة أساسها أن التزامن شىء وأن التعاقب شىء آخر . فالتزامن يمثل محورًا أفقيًا تقوم فيه العلاقات بين الأشياء المتواجدة على أساس ثابت ليس للزمان أى دخل فيه . فى حين أن التعاقب يمثل محورًا رأسيًا تقوم عليه العلاقات بين الأشياء المتتابعة على أساس التغير الزمنى أو التاريخى .

وعلى هذا الأساس فإن وجهة النظر الأولى فيما يتعلق بعلوم اللسان هى وجهة نظر وصفية تقتصر على النظر إلى حالات اللغة ، فى حين أن وجهة النظر الثانية هى وجهة نظر تاريخية تحرص على وصف تطور اللغات .

ووجهة النظر التقليدية التى كانت شائعة فى القرن التاسع عشر كانت تعتمد على النزعة التطورية ، واعتبار التاريخ بمثابة المنظور الأساسى للغة ، مع الحرص على تجزئة اللغة إلى عناصر منعزلة من أجل البحث عن قوانين التطور الخاصة بكل منها على حدة . وقد قام دى سوسير بمعارضة هذه النزعة التطورية فى فهم طبيعية اللغة .

ومن هنا فإن الدعوة إلى اعتبار اللغة نسقًا أو نظامًا تضطر الباحث إلى التخلى عن المنظور التاريخى فى دراسة اللغات من أجل العودة إلى المنظور الوصفى .

وهكذا أراد دى سوسير لعلم اللغة أن يتحرر من شتى العناصر الغريبة عنه لكى يقتصر على التزام حدود السمات النوعية الباطنية فى صميم النسق اللغوى نفسه .

أما التيار الذى ساد اللغويات الأمريكية منذ عام 1930م حتى عام 1950م فهو التيار الذى تزعمه ليوناردو بلومفيلد مؤلف كتاب « اللغة » عام 1931م الذى أكد فيه على ضرورة القيام بدراسة اللغة دراسة وصفية ، أى دراسة ظواهرها المختلفة دراسة سانكرونية .

واللغة عند بلومفيد عبارة عن سلوك بشرى يشبه أنماط السلوك الأخرى . وهو عادة ما يستبعد من دراسة اللغة كل ما يرتبط بالمعنى ويتوقف عند

عملية تحليل الأشكال الصوتية ، وهكذا أراد بلومفيلد أن يطور اللغويات البنيوية بإقامة لسانيات وصفية .

وعلى هذا الأساس يبقى الوصف عند بلومفيلد محصورًا فى دائرة الصورة الصوتية ، الماثلة فى صميم الواقع . ومن ثم أصبحت مهمة العالم اللغوى فى نظره محصورة فى عملية وصف الكيان المكتوب لأية لغة ما من اللغات .

أما علم الفونولوجيا (علم الصوتيات) فقد تأسس على يد العالم الروسى نيقولا تبسكوى صاحب كتاب « مبادئ الفونولوجية » . والمبدأ الأساسى للنظرية الفونولوجية هو إضفاء مضمون عينى على الفكرة السوسيرية القائلة بأن اللغة نسق تسوده العلاقات القائمة بين الوحدات .

وقد مرت الفونولوجيا فى تطورها بمراحل عدة أولها مرحلة التميز بين دراسة أصوات الكلام ودراسة أصوات اللغة وانتهت بدراسة وصف الوحدات الصوتية التى تؤلف المستوى الدال للغة .

والتحليل الفونولوجى يهدف إلى الكشف عن نسق العلاقات التى تنطوى على وظيفة داخل التنظيم اللغوى لأى دال على اعتبار أن لكل فونيم مركبًا من السمات الخاصة التى تميزه عن غيره من فونيمات النسق .